الخطابة من السفسطة إلى الحوار والجدل

الباحث عبد السلام خواخي
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة
المغرب

موجز:

اعتمدت الفلسفة اليونانية الحجة بهدف إقناع القارئ واخضاعه لسلطة 'اللوغوس'. ومن هذا المنطلق اكتشف الفلاسفة اليونانيون الإمكانيات العظيمة التي تختزنها اللغة للتأثير في الآخرين والتحكم فيهم بالخطاب؛ فبدل الاستبداد بالقوة يمكن إقناع الآخر بقوة الحجة وسلطة الدليل. ولذلك اضطلع السفسطائيون بمهمة تعليم الخطابة استجابة لحاجات عملية: كالتدبير السياسي، والترافع القضائي، والاستمتاع الاحتفالي؛ وأخرى نظرية فكرية: ككتابة النصوص الفلسفية، الأدبية، العلمية وغيرها. وهكذا تم توظيف الخاصية الحجاجية في اللغة لخدمة اليومي، والدفاع عن المصالح ووجهات النظر والتصورات التي ينظر من خلالها البشر إلى عالمهم. ولهذا السبب رفض الفلاسفة اليونانيون الكبار الخطابة السفسطائية، لأنها لا تروم الدفاع عن الحقيقة الواحدة الموضوعية، بقدر ما توظف ودغدغة مشاعر المستمعين، وتزييف الحقائق، قصد توجيه الجماهير صوب وجهة ما، وخدمة مصلحة ما.

كلمات مفتاح: لغة، خطابة، سفسطة، حوار، جدل، إقناع...

Abstract:

Greek philosophy adopted argumentation with the aim of convincing the reader and subjecting him to the authority of 'logos'. From this point of view, Greek philosophers have discovered the enormous potential of language to influence and control others through discourse. The other can be persuaded by the power of the argument and the authority of the evidence, instead of oppressing it by force. Thus, the Sophists undertook the task of teaching rhetoric to serve practical needs. Therefore, the argumentative property of language has been used to defend the interests, views and perceptions through which humans perceive their world. That is why the great Greek philosophers rejected the rhetoric of the sophists, because it does not defend the objective truth, as much as it is used to tickle the feelings of the auditors, and to falsify the facts, to lead the masses to such destination and serve such interest.

Keywords: language, argumentation, rhetoric, sophistry, dialectic, persuasion…

مقدمة.

تشكل اللغة الخاصية المميزة للإنسان والعملة التي يتداولها لتلبية حاجاته وقضاء مصالحه، فهي وسيلة للتواصل مع أفراد جماعته، تمكنه من التعبير عن أفكاره وما يجول بخاطره من أحاسيس ومشاعر، إنها الوجه الآخر للفكر، فهي تجسده وتخرجه من الوجود بالقوة ليصبح موجودا بالفعل. إنها نظام معقد ونسق متكامل – من الأصوات والعلامات والإشارات والرموز وتعابير الوجه – تسمو بالإنسان إلى عالم الثقافة لتحرره من الإكراهات الطبيعية والضرورات الحيوية.

إن الوجود البشري في هذا الكون لا يفهم إلا من خلال قدرة الإنسان على الترميز والتعبير عن الفكر بواسطة اللغة المنطوقة المتمفصلة[1] التي تنقذه من عزلته الأنطولوجية، وتدمجه في عالم الغير بهدف تبادل المعارف والخبرات والتقنيات لضمان استمرار نوعه والحفاظ على ذاته. وما دامت اللغة هي الوسيلة الأفضل للتأثير في الآخر والتأسيس للعلاقات الاجتماعية معه، فإن اللغة — إذن – ليست مجرد أصوات وجمل ونصوص، بل هي وعاء يحمل المعاني ويروم إقناع المستمع/القارئ اعتمادا على أساليب بلاغية وحجج معقولة وبراهين منطقية صارمة.

يحضر الحجاج في الفلسفة المعاصرة حضورا بارزا، فهو موضوع للتفكير الفلسفي، من جهة، ومن جهة أخرى، أساليب وتقنيات وأدوات للدفاع عن الأطروحات الفلسفية. لذلك اهتمت الفلسفة باللغة اهتماما بالغا – سواء الصورية منها أو الطبيعية – تحليلا، وفحصا، ونقدا، نظرا لما تكتسيه الخطابات البشرية من أهمية في فهم الواقع، وكشف حقيقة ظواهره، ووصف وقائعه، أو خلق واقع جديد يستجيب لحاجات الأفراد النفسية والاجتماعية والبيولوجية. إذ أن التناول الفلسفي لموضوع الحجاج – باعتباره أدوات لصناعة الخطابات – يمكننا من إعادة التفكير في مجموعة من المفاهيم من قبيل: العقل، اللغة، الحقيقة (الصدق)، المعرفة، الأنا والآخر.

إن كل خطابات اللغة الطبيعية هي في الأساس خطابات حجاجية، تربط بين ذاتين على الأقل تتبادلان التأثير والتأثر، ويسعى فيه كل طرف إقناع الآخر بآرائه واعتقاداته اعتمادا على آليات وأساليب حجاجية. إن الحجاج جهد تواصلي لساني – بالدرجة الأولى – مؤسس على قصد ما، ومخطط له سلفا وفق أهداف معينة لإقناع المتلقي، أو استمالته، أو التعديل في سلوكه ومواقفه الشخصية في ظروف وسياقات معينة. لذلك تختلف مقاصد الخطاب الحجاجي تبعا للجهة التي يصدر عنها: فقد يبنى على الإغراء والتضليل، فتكون المتعة الشخصية والمصلحة الخاصة غايته؛ وقد يتجه وجهة إقناعية عقلية بحتة تضطلع الأدلة المنطقية وأساليب الاستدلالية بمهمة توجيه وإشباع الفكر النقدي للمتلقي.

لا غرابة أن تكون النظرية الحجاجية إبداعا يونانيا خالصا، حيث أصبحت اللغة هي الوسيلة المفضلة لإقناع الخصم والتأثير فيه، سواء باستعمال حجج دامغة أو براهين وأدلة منطقية أو بالمغالطة والتلاعب بالكلمات المدغدغة للمشاعر. فما الأساس الذي قامت عليه النظرية الحجاجية في الفكر اليوناني؟ وما دور الحركة السفسطائية في تأسيس النظرية الحجاجية؟ وهل السفسطائيون مجرد مخادعين وتجار كلام أم أن نظرتهم النسبية للحقيقة والأخلاق والواقع هي سبب رئيسي لتأسيس نظرية الحجاج؟ لماذا رفض سقراط وأفلاطون الخطابة السفسطائية وقبلا بالحوار والجدل (الخطابة الفلسفية) كسبيل للوصول إلى الحقيقة؟

لتبيان هذا الأمر لا بد من البحث عن البدايات الأولى لنظرية الحجاج لدى اليونان، حيث وقفت على لحظة السفسطائيين – خصوصا بروتاجوراس وجورجياس – باعتبارهم معلمين لفنون الخطابة وأساليب السيطرة على الخصوم بالكلمة والخطاب عوض السيطرة عليهم بالعنف والقوة، وبينت في هذا الصدد السياق الاجتماعي والسياسي الذي نشأت في ظله الخطابة (البلاغة) ، ثم عرجت بعد ذلك على أهمية الحوار السقراطي في رفض السفسطة، وختمت هذا البحث بلحظة أفلاطون الذي كرس جل مشروعه

الفلسفي لتفنيد مزاعم السفسطائيين ودحض أطروحاتهم القائمة على نظرة نسبية للواقع والحقيقة. حيث رفض رفضا تاما الخطابة السفسطائية وبدل ذلك قبل بالخطابة الجدلية الفلسفية باعتبارها أفضل الأساليب الحجاجية والبرهانية الموصلة إلى الحقيقة الثابتة والخالدة.

الأصل الفلسفي للخطابة.

لقد بنى السفسطائيون موقفهم الفلسفي للتخلص من وهم المطابقة بين الحكم (الفكرة الموضوعية) وموضوعه على الأساس التالي: "لكي تعرف الواقع عليك أن تنظر إليه من وجهة نظر معينة"[2]. بمعنى أن الواقع كما هو لا يمكن الوصول إليه ولا سبيل لبلوغه إلا من زاوية نظر ذاتية وخاصة، وأبرز من دافع على هذا الطرح بروتاجوراس، الذي اعتبر أن "الإنسان مقياس كل الأشياء، الموجودة منها، وغير الموجودة"[3]، على اعتبار أن الأشياء توجد وفق تمظهرها لكل إنسان على حدة، ولا وجود لمعيار خارجي يمكن من الفصل بين ما هو حقيقي أو وهمي، وبذلك تكون المعرفة والحقيقة نسبيتين: فما يبدو لي جميلا قد يبدو للآخر قبيحا، والشيء الذي أحس به ساخنا قد يكون باردا بالنسبة للآخر، ومنه فالشيء جميل وقبيح أو بارد وساخن في الآن ذاته. لا وجود – إذن – لموضوعية، ولا لمنطق، ما دام مبدأ عدم التناقض لا يحترم؛ ومنه فلكل حقيقته، وكل وجهات النظر حقائق. كما أن للمدينة حقيقتها ومصلحتها، هي تقرر قيمها وهذا ما يدفع إلى القول إن الخطاب (اللغة) لا ينطوي على معرفة علمية أو قيمية أو جمالية، بقدر ما هو قناعات تختلف من شخص إلى آخر ومن مدينة إلى أخرى حسب اختلافها التاريخي والجغرافي[4].

هكذا يعتبر بروتاجوراس أن البشر ينتجون خطابات تتغير حسب مصالحهم وممارساتهم ويحاولون التأثير على بعضهم البعض، أما ادعاء وجود الحقيقة المطلقة الواحدة فهو مجرد وهم، وسبب ذلك أن الواقع الخارجي ليس معطى مباشرا، بل لا بد من تدخل الحواس والاعتقادات التي تملكها الذوات للحديث عنه. بمعنى أنه لا وجود لواقع موضوعي مستقل يمكن وصفه بنظرية صدق واحدة، بل هناك تعدد في وجهات النظر إلى الواقع، أي أن الواقع من منظوري الخاص ليس هو نفسه من منظور الآخرين، بل أكثر من ذلك تتعدد نسخ الواقع بتعدد الحالات النفسية والوضع الشخصي. فالواقع وأنا مريض ليس هو الواقع وأنا في صحة جيدة، كما أن الواقع وأنا شاب ليس هو نفسه وأنا طفل أو كهل. وبناء عليه فإن الواقع الموضوعي مفقود، إذ "لا تستطيع الذوات الشعورية أن تصل إليه، ولا طريقة صحيحة لتمثيله، ولا وجود لوسيلة للتلاؤم معه، إلا من وجهة نظر معينة، ومن موقف معين"[5]. بمعنى أنه لا وجود لواقع مستقل عن المواقف ووجهات النظر. كما أن الحقيقة ليس مطلقة ولا واحدة، بل هي نسبية متغيرة ومتعددة بتعدد الذوات، بل إنها تتعدد عند الذات الواحدة، لأنه لا يوجد معيار موضوعي يمكن للجميع أن يعتمده لتقييم الأحكام. ومنه فإن المعارف العلمية نفسها ليست موضوعية تعكس الواقع كما هو بقدر ما هي معارف منظورية، نابعة من الحواس والآراء الخاصة، ومنه لبناء المعرفة لا بد من الشك في ماهية الحقيقة. لأنها تنتج "في إطار يوفر المصادر المفهومية التي يوصف العالم من خلالها ويفسر"[6].

يبدو أن تأثير النسبية واضح بشكل ملموس، في بناء المعرفة العلمية، القائمة على شهادة الحواس وحدوس الحس السليم، فلا حقيقة خارج ما يبدعه الإنسان من مفاهيم وما يختبره من تجارب. كما أن المعرفة بمعناها الإنساني هي ما تنتجه الذوات من خلال ما يظهر لها من الواقع، فلا علم إلا بالظواهر، أما الواقع المستقل الموضوعي – إن كان موجودا – فلا يمكن للذوات المحدودة في الزمان والمكان والقدرات الجسدية والذهنية أن تصل إليه. وهكذا لم تعد الحقيقة قيمة مطلقة صادرة من عقل جوهري مفارق، بقدر ما هي قيمة عملية نسبية يمكن الوصول إليها اعتمادا على منهج تجريبي حسي، فلا حقيقة إلا ما تتفاعل معه الذات حسيا، وما تتفاعل معه ذات ما وتدركه حسيا قد لا يكون هو نفس ما تدركه ذات أخرى، ومن هنا تصبح الحقائق نسبية ومتغيرة حسب السياقات والظروف والقدرات الحسية لدى الذوات العارفة، كما أن التعبير عن الحقائق لا يكون إلا بواسطة اللغة، واللغة ليست

شفافة، بل تستعمل من طرف الذوات للكشف عن وجهات نظرها الخاصة. ومن هنا تبرز الوظيفة المركزية للخطابة كتقنية للتأثير وإقناع الآخرين عن طريق التفاعل والتواصل معهم. بمعنى أن المعرفة العلمية هي نشاط اجتماعي وخطاب حجاجي تأثيري وليس خطابا برهانيا صارما مستقل عن المجتمع والأفراد المنتجين له.

إذا كان بروتاجوراس قد اعتبر أن وجهات النظر هي التي تسمح بالحديث عن العالم فإن جورجياس يذهب إلى الحد الأقصى في إنكار وجود الواقع، إذ يقول في مستهل خطاب له تحت عنوان 'اللاوجود' أو 'في الطبيعة': "أولا، لا يوجد أي شيء، ثانيا، حتى وإن كان موجودا فإن الإنسان لا يستطيع تحديده، ثالثا، وحتى إن استطاع تحديده فإنه لا يستطيع وصفه ولا تفسيره للآخرين"[7]. تماشيا مع حجة جورجياس، يمكن القول إن الإنسان يعيش عزلة أنطولوجية سجين ذاته لا يستطيع الخروج منها إلى الآخرين كما لا يسمح لآخرين بولوج عالمه الموصد أمامهم، لذلك فهو يعيش في حيرة من أمره، يحاول جاهدا أن يعبر عما يعرفه وما يخالجه من أفكار وانطباعات، لكن وسيلته المفضلة هي اللغة، واللغة ليست شفافة ولا بريئة، وما دام الأمر كذلك فإن ما هو متاح للمتكلمين هو الدخول في حوارات وجدالات لا نهاية لها، محاولين – عبثا من خلال التواصل – أن يكشفوا عما يفكرون فيه وما يعتقدون في صوابه. ومنه فإن ما ينتجه المتكلمون من خطابات هو محاولة للإفصاح عما يعتقدون أنه صواب، لأنه لا وجود لمعيار خارجي يحتكم إليه للفصل بين الصائب من الخاطئ. وبالتالي فإن الصدق قيمة نسبية ذاتية وليست قيمية موضوعية خارجية مطلقة.

إن الإنسان يعيش في ظل مواقف وقناعات وآراء، وإذا كان هناك من واقع فهو لا يتمظهر إلا في الخطابات ووجهات النظر. وعليه فإن من يستطيع خلق واقع ما أو تغييره هو ذلك الذي يحسن الكلام ويحسن إنتاج الخطابات، أي أن من يتمكن من ناصية اللغة ويوظفها بطريقة حجاجية/خطابية هو الذي يسيطر على المتلقي ويؤثر في سلوكه، ويدفعه إلى الفعل أو الإحجام عنه. ولهذا السبب ارتبطت الخطابة بالفضاء العام، حيث تتعارض المصالح وتختلف وجهات النظر وتتباين المواقف.

تنبني الخطابة على فلسفة تنظر إلى العالم والمجتمع والسياسة والأخلاق نظرة نسبية. ومادام كل شيء نسبي فإن ما يميز خطيبا عن آخر هو حسن التعبير والكلام قصد الدفاع عن وجهة نظره والتأثير في المستمعين. فإذا كنا لا نرى العالم إلا من وجهة نظر خاصة، فإن الأمر سينعكس مباشرة على لغتنا، حيث تصبح اللغة خاصة وفردية وليست شفافة تنقل بأمانة ما يوجد في الواقع، بل تنقل وتعكس وجهة النظر الخاصة بكل ذات. ومادامت اللغة تعبير صوتي ورمزي عما تفكر فيه الذات، فإن ما يصدر عنها من كلمات وجمل وخطابات ستفتح المجال لتأويلات عديدة، يمكن أن تصل إلى حد التناقض، لأن الذوات تختلف في وجهات النظر إلى العالم من حولها. وهكذا فاللغة لا تقول إلا ما تراه الذات الخاصة والفردية وليس ما يوجد في الواقع كما هو. فاللغة – بهذا المعنى – تعابير توظف الكلمات والرموز المشتركة لتكديس الأفكار الذاتية والخاصة، وفهم الرموز والعلامات لا يكون إلا من منظور خاص وذاتي.

رغم كل الاتهامات الموجهة للسفسطائيين على اعتبار أنهم مغالطين، ويستعملون الخطابة واللغة للخداع واستمالة الجمهور، فإن هذا لا يمنع من إعادة الاعتبار لهم، لكونهم مفكرين وفلاسفة لهم قيمتهم وفضلهم في تطوير فنون الإقناع والخطاب، والدليل على ذلك اهتمام الفلاسفة اليونان الكبار بالتحاور معهم بشكل مباشر(سقراط)، أو التحاور مع أفكارهم كما هو الأمر مع أفلاطون الذي خصص محاورات بكاملها تحمل أسماءهم وتشتغل على أفكارهم فحصا ونقدا؛ كما أن أرسطو ألف كتاب 'الخطابة' بغرض إعادة الاعتبار للخطابة وآليات الإقناع والتأثير التي اكتشفها السفسطائيون، وهذا دليل على أهميتهم وسلطتهم المعرفية التي لا يمكن القفز عليها بسرعة.

يمكن القول إجمالا إن السفسطائيين اكتشفوا الخاصية الحجاجية (التداولية) للغة، جاعلين من الخطابة موضوعا لتعليمهم الذي ينطوي على نظرة فلسفية للعالم، إذ ساهموا في الازدهار الفكري الذي عرفته الحضارة اليونانية، ووظفوا الخطابة كوسيلة لتبادل الأفكار

وانتشارها، ومكنوا محترفي الكلام (الخطباء) من السيطرة على الأذهان والأجساد. ونظروا إلى الواقع نظرة نسبية، حيث لا وجود لحقيقة مطلقة يمكن البرهنة عليها ببراهين قطعية، بل إن الواقع هو ما تعتبره الذوات المتكلمة واقعا، حيث تستطيع وصفه من وجهة نظر ما، كما تستطيع نسج خطابات ونظريات تخلق واقعا ما قابلا للتغيير كلما احتاج الناس ذلك. وبذلك قوض السفسطائيون القيم التقليدية الأخلاقية واللاهوتية التي رسختها الأسطورة، واستبدلوها بقيم نسبية أرضية براغماتية تتغير بتغير المصالح وحاجات الناس اليومية. وفتحوا المجال لبناء حقائق ومعارف نسبية، قابلة للشك والنقد، وحتى الإنكار المطلق (العدمية). لكن هل فعلا الحقيقة نسبية ومتغيرة بتغير الخطابات ووجهات النظر أم أن الحقيقة واحدة، وكونية، وعقلية؟ وهل وجهة النظر الذاتية تعبر عن الحقيقة؟ ولماذا الرأي الخاص يعبر عن الخطأ ويعكس سلطة العادة فقط؟ وما الحجج الداحضة لنسبية السفسطائيين؟ وما موقع الخطابة في النسق الفلسفي السقراطي/الأفلاطوني؟ ولماذا رفض أفلاطون الخطابة السفسطائية ودافع عن الخطابة الجدلية؟

الحوار والجدل الخطابي.

إذا كان السفسطائيون قد أسدوا خدمات جليلة للمجتمع اليوناني، وأسهموا إسهاما فاعلا في إشاعة قيم الديمقراطية والنقاش العمومي، والإقناع باللغة والخطاب بدل العنف المادي والاستبداد باللسان بدل الاستبداد بالقوة، فإن هذا لم يستسغه خصومهم الفلاسفة – خصوصا سقراط أفلاطون وأرسطو – الذين اتهموهم بالتلاعب باللغة من أجل مغالطة المخاطب واستمالته والتأثير فيه، ودغدغة عواطف المتلقي عوض إشباع الفكر النقدي لديه، ومخاطبة الأهواء عوض مخاطبة العقول. فما موقف سقراط من الخطابة السفسطائية؟ ولماذا توسل سؤال الفحص؟ ولماذا رفض أفلاطون الخطابة السفسطائية وقبل الخطابة الفلسفية الجدلية؟

سقراط وفن الحوار.

لقد كان سقراط[8]، كما صوره أفلاطون من خلال محاوراته، أشد أعداء السفسطائيين رفضا للخطابة، إذ يحضر سقراط في معظم المحاورات الأفلاطونية كفيلسوف يساهم في النقاش والسجال في قضايا تدور معظمها حول الإنسان من: أخلاق، وقانون، وتربية، وتنظيم سياسي، ومعرفة، ولغة، وغيرها. لقد كان هم سقراط الأساسي هو تخليص الخطابة اليونانية من الشوائب التي علقت بها، من خلال سوء استعمال العقل، والعزف على وتر المصلحة والانفعالات، لذلك وقف بالمرصاد للسفسطائيين بتفنيد دعواهم وإيقاعهم في التناقض من خلال التفاعل ضمن المتوالية الحوارية التي يمارس فيها سقراط دور الجاهل الذي يسأل أكثر مما يجيب. لقد "سعى [سقراط] سعيا حثيثا لإنقاذ اللوغوس من 'فتنة المغالطات'، وإنقاذ الشباب من 'غوايات التضليل والتشكيك'، وحماية الديمقراطية من كل أشكال التلبيس بالخطاب والتغليط بالقياس الفاسد لإبطال الحجج ونقض الأدلة، وذلك لما لكلام السفسطائيين من تأثير في عواطف الشركاء وأحوالهم النفسية وأهوائهم الخاصة وتحويل قناعاتهم إلى الوجهة المرادة"[9]. ولتحقيق هذه الغاية النبيلة وظف سقراط منهج التوليد[10] الذي يتوسل السؤال المزعج والفاحص، وذلك بالدخول في حوار يتشعب ويطول قصد الإحاطة بكل حيثيات موضوع النقاش، بدل الخطابة التي تسير في اتجاه واحد، حيث يلقى السفسطائي خطابه على الحشود المجتمعة في الساحة العمومية أو المحاكم أو الأولمبيا وهي تستمع –وتستمتع– وتتأثر دون أن تتعدى ذلك إلى مساءلة الحجج والأدلة التي يعتمدها الخطيب، وحتى إذا ما تدخل أحد الحاضرين فهو بدوره سيلقي خطابا من وجهة نظره الخاصة، ومن هنا تصبح الخطابة مجرد كشف عن وجهات نظر وليس بناء للمعارف أو تخصيبا للأفكار التي تحقق قيمة الصدق الموضوعي.

"اعرف نفسك بنفسك"[11]هذا هو شعار الفلسفة السقراطية، ومعرفة النفس لذاتها لا تتم إلا من خلال الحوار والاتصال المباشر بين النفوس، ولهذا السبب – ربما – لم يكتب سقراط على غرار الفلاسفة اليونانيين الكبار. إن سؤال الفحص هو الأداة الفكرية المنهجية التي تساعد على توليد الحقيقة من النفوس وتدفع بالمحاوَرين إلى الاعتراف بجهلهم رغم ادعائهم في مستهل الحوار بأنهم

يملكون الحقيقة ويعرفون الصواب. فالحوار المولد للأفكار منهج يعتمد على الأسئلة المتشعبة بهدف النفاذ إلى عمق المفاهيم والمعارف والحقائق الموضوعية التي توجد خلف الآراء الذاتية والخاصة، أي أن هذا المنهج يروم الوصول إلى الحقيقة الواحدة الخالدة التي توجد في أعماق كل نفس بشرية رغم تعدد تمظهراتها وتجلياتها في الحياة المشتركة بين الناس. ومن هنا يمكن فهم تلك الاستعارة العجيبة التي يشبه فيها سقراط نفسه بالمولدة – التي تولد النساء – بينما هو يولد الرجال ويستخرج الحقيقة والمعارف المضمرة في الداخل (النفس) لتصبح جلية وواضحة للجميع (الخارج)[12]. وعليه فإن فن الحوار هو عملية استخراج ما كان مضمرا وموجودا بالقوة ليصبح ظاهرا وموجودا بالفعل. أي أن الحوار السقراطي يسير في الاتجاه المناقض للخطابة السفسطائية، لأنه يولد الأفكار ويستخرجها بينما الخطابة تنطلق من الآراء وتغرق في تعدد أشكالها وتمفصلاتها.

إن الخطابة إذن تمثل نقيض اللوغوس، مادامت تخاطب العواطف بدل العقل. وعليه لمعرفة الحقيقة يلزم حسب سقراط الدخول في حوار جدي مع المخالفين قصد توليد الأفكار وبناء المعارف، واستخراج ما هو مضمر في أعماق النفس البشرية وعدم الاكتفاء بالمعارف الجاهزة والانطباعات السطحية، والوسيلة المفضلة للاستمرار في المتوالية الحوارية هي الأسئلة المتسلسلة والمتشعبة والمزعجة، قصد فحص وإبطال دعوى المحاورين؛ إذ يعتبر السؤال الوسيلة الضرورية من أجل دحض أطروحات المخالفين، ويؤكد ذلك طه عبد الرحمن بقوله: "السؤال الفلسفي السقراطي عبارة عن فحص، ومقتضى الفحص هو أن يختبر السائل دعوى محاوره بأن يلقي عليه أسئلة تضطره إلى أجوبة تؤول في الغالب إلى إبطال دعواه، وخير شاهد على هذا الفحص الفلسفي ممارسة 'سقراط' للسؤال، فقد كان يبادر أحدَ مواطنيه بسؤال عام عن مفهوم مأخوذ من مجال الأخلاق على الخصوص، حتى إذا تلقى منه جوابا معينا، ألقى عليه مزيدا من الأسئلة الواضحة التي لا يجد المحاور بدا من الرد عليها بالإيجاب، معتقدا أن هذا الرد لا يضر في شيء جوابه الأول؛ فإذا فرغ 'سقراط' من أسئلته التي قد تطول وتتشعب، مضى إلى الجمع بين أجوبة هذا المحاور المختلفة، مبرزا التناقض الصريح بين جوابه الأول وأجوبته الاضطرارية اللاحقة"[13].

يتبين من المنهج التوليدي السقراطي أن الحوار القائم على المساءلة والفحص هو السبيل الآمن لبناء المعرفة والوصول إلى الحقيقة الواحدة والكلية التي تجثم في أعماق النفس البشرية، أي أن الخطاب العقلاني القائم على الحجج المنطقية والبراهين الثابتة هو الوحيد الذي يحمل الحقيقة المطلقة التي تتجاوز كل وجهات النظر الخاصة والذاتية. فإذا كان السفسطائيون يدافعون عن تعدد الحقائق من شخص إلى آخر، كما تتعدد عند الشخص الواحد حسب تغير أحواله وشروط وجوده، فإن سقراط فعلى النقيض من ذلك يطرح الأسئلة ويزعج الشباب ويوقظ الرجال من سباتهم الدغمائي، بهدف البحث عن الوحدة وراء التعدد الظاهر، والمطلق وراء النسبي، والمعقول وراء المحسوس، وإن شئنا القول الخطاب المنظم (اللوغوس) وراء الكلام المنطوق (الخطابة). فما مآل هذه الأطروحة في المتن الفلسفي الأفلاطوني؟

دحض أفلاطون للخطابة السفسطائية.

لما كان أفلاطون[14] من أشد المعجبين بفلسفة أستاذه، فإنه من الطبيعي أن ينهج نفس المنهج لاستكمال المشروع الفلسفي السقراطي، ففي جل المحاورات الأفلاطونية نجد سقراط حاضرا إما بوصفه شخصية حقيقية أو كشخصية رمزية يتقمصها أفلاطون قصد "محاربة كل أشكال التوظيف السلبي للملكة الخطابية ولتقنياتها المتنوعة، وتخليص الخطابة من قبضة السفسطائيين، والحرص على تنقيتها مما علق بها من 'تصوراتهم الباطلة' و'ممارساتهم المنحرفة'"[15]. هذا وقد وجه أفلاطون نقدا حادا للمذهب الفلسفي الذي تبناه بروتاجوراس. حيث بين أن النزعة النسبية السفسطائية تقوم على المغالطة والتلاعب بالكلمات، لا تصمد أمام قوة براهين العقل ومبادئ اللوغوس. فالرأي – بالنسبة لأفلاطون – وجهة نظر خاصة حول موضوع ما لا يمكن أن يكون حقيقة، لأنه مجرد ظن وغير

مؤسس علميا، ولا يمكن الاعتماد عليه في الوصول إلى الحقيقة، لأن الآراء الخاصة بالنسبة لأفلاطون هي تعبير عن الإحساسات الملموسة التي لا ترقى إلى مستوى المعرفة اليقينية. إنها ترجمة مشوهة لشهادة الحواس التي ترى نسخ الأشياء فقط. فالرأي مثله مثل الرؤيا في كهف مظلم، حيث تنعكس ظلال الأشياء فقط، بينما اللوغوس هو خطاب الحقيقة الذي يشبه الرؤيا خارج الكهف في واضحة النهار، حيث تبدو الأشياء كما هي في الواقع[16].

لقد رفض أفلاطون الخطابة السفسطائية لأنها مجرد خطابات بلاغية موجهة للحشود الشعبية: تجمعات الهيئة القضائية في المحكمة، حشود المواطنين في الساحة العمومية، وجمهور المحتفلين في الأولمبيا. والسبب هو أن الحشود لا تستطيع الكشف عن المغالطات والخدع التي تحملها الخطب، ولا تستطيع الدخول في نقاش وجدال مع الخطيب، فهو في منأى من الاعتراض على أطروحاته أو دحض حججه، وهذا ما يؤكده أفلاطون على لسان جورجياس وهو يحدد مهمة الخطيب في كونها "ليست تدريس قانون المحاكم أو التجمعات الأخرى حول الأمور العادلة وغير العادلة، لكن مهمته هي الإقناع، لأني لا أظن أنه يستطيع تعليم مثل هذا التجمع الكبير حول الأمور المهمة جدا في فترة قصيرة"[17]. ومن هنا يتبين أن الخطيب لا يمارس فنه (حرفته) إلا في جموع غفيرة، حيث يعمد إلى استمالتهم ودغدغة عواطفهم اعتمادا على أساليب لغوية ومحسنات بديعية، من أجل التلاعب بمعاني الألفاظ، وتجنب الاستدلال البرهاني المنطقي.

إذا كان بروتاجوراس قد اعتبر الخطابة والنقاش العمومي متاح للجميع حرفين أو تجارا، فلاحين أو رجال قانون، لأن ذلك هو ما يجعل الجميع يتمتع بحق المواطنة الديمقراطي القائم على المساواة، فإن أفلاطون سيستهجن هذا الأمر قائلا: "كيف يتقبل مواطنون بحق آراء حداد أو إسكافي حول شؤون السياسة؟"[18]. لهذا السبب قلل أفلاطون من أهمية الخطابة السفسطائية، لأنها قائمة على الرأي، والآراء تحيل – دوما – إلى المصالح والرغبات والظروف والأهواء، وهي تترجم حاجات الناس اليومية، حيث تعكس الواقع وفق ما يناسب الحالة الخاصة لكل فرد وليس الواقع كما هو. إن الشكل الخارجي للخطابة لا يسمح نهائيا بإنتاج المعرفة، إنه لا ينتج إلا الاعتقاد وبادئ الرأي. بل يمكن القول إن الخطابة لا تختلف في شيء عن الحرف اليدوية، إذ لا ترقى إلى مستوى التفكير النظري، بل هي حرفة يزاولها الخطباء (السفسطائيون)، مثلما أن العمل اليدوي من إنجاز العبيد وعامة الناس. لذلك نجد أفلاطون يرفع من قيمة التفكير والتنظير الفلسفي مقارنة بالأعمال اليدوية والمهن والصناعات، متأثرا بالصورة النمطية عن الشغل باعتباره عقابا وفعلا وضيعا لا يقوم به إلا العبيد[19]، أما السادة الأحرار فهم منشغلون بالتفكير في أنجح السبل لتدبير البيوت والمدن. ومن هنا تبرز النظرة الاحتقارية الأفلاطونية للخطابة خاصة وللحرف والأعمال اليدوية عامة، ومبرره في ذلك أن الإنسان 'كائن عاقل'، لذلك عليه أن يسمو بنفسه فوق عالم الحيوانات والآلات بالتفكير النظري، بينما العمل اليدوي يقوم به العبيد كعقاب لهم. يقول جون بيير فرنان في معرض حديثه عن علاقة تقسيم العمل بطبقات المدينة الأفلاطونية: "يمكن القول إن العمل، بالنسبة إلى أفلاطون، يبقى غريبا عن كل قيمة إنسانية، وأنه، تحت بعض المظاهر، يبدو له حتى كنقيض لما هو جوهري في الإنسان"[20]. ومن ثمة فإن العمل المنسجم مع طبيعة الإنسان هو التنظير والتفكير، بينما العمل اليدوي هو اغتراب للذات واستلاب لها، وعليه فإن من يقوم بالأنشطة الحرفية لا يمكن أن يكون هو مصدر التدابير السياسية، بل هو موضوع للضبط والسلطة التي يجب أن يمارسها الحكام (الفلاسفة)، لأنهم الوحيدين الذين يعرفون أين يكمن الخير، وكيف يحقق العدل، ويقدر الجمال، وتُدْرَك الحقيقة. صحيح أن تحقيق سعادة الفرد وقوة المدينة رهين بحياة الجد والاجتهاد والعمل، ومادام الإنسان مدني بطبعه، فهو يحتاج إلى التعاون مع مواطنيه في المدينة لتحقيق أسباب سعادته، غير أن البشر لا يتمتعون بنفس القدرات الجسدية والذهنية، وينتج عن ذلك أن التمايزات والاختلافات تدفعهم إلى القيام بوظائف متباينة لتحقيق التكامل بينهم وخدمة بعضهم البعض.

بين أفلاطون من خلال محاورة 'جورجياس أن الخطابة الحقيقية هي الناتجة عن مناقشة بين مفكرين لا يستعينون بأي سلطة، غير سلطة اللوغوس، حيث يصبح الحوار أخذا وردا بين مفكرين متكافئين معرفيا، وليس خطابا يسير في اتجاه واحد عمودي. لأن الجدل حول قضية من القضايا لا يحسم إلا بالأدلة الدامغة؛ حيث تطرح الأسئلة وتقدم الأجوبة، ولا تصمد إلا الأفكار المدعمة بحجج وبراهين. والمعرفة اليقينية لا تنتج إلا من خلال هذا النوع من الجدل العقلاني، وليس من خلال السفسطة الموجهة إلى العامة. يقول أفلاطون على لسان سقراط: "حينما يجتمع الناس من أجل اختيار الأطباء وصناع السفن أو أي مهنة أخرى، فهل نلتمس من الخطيب رأيه في الموضوع؟ لا، إذ من البديهي، أننا في حاجة، في كل حالة، إلى اختيار أفضل اختصاصي الميدان"[21]. غير أن جورجياس لم ترقه هذه الحجة متدخلا ومعيدا الاعتبار للخطابة، من خلال تقديم دليل حاسم على صدق ما يدعيه قائلا: "لقد رافقت مرارا أخي الطبيب، وآخرين من زملائه قاصدين أحد مرضاهم الذي كان يمتنع عن تجرع دوائه وعن الكي... حينما يطلب منه الطبيب ذلك، والحال إنه في الوقت الذي يعجز فيه هذا عن إقناع المرضى، فقد تمكنت أنا من إقناعه وذلك بأداة واحدة هي الخطابة"[22]، هكذا – إذن – بالنسبة لجورجياس لا توجد مهمة يستحيل على الخطيب أن يقنع بها الجمهور؛ بل بإمكانه ادعاء معرفة كل شيء، وإتقانه فن التأثير واستمالة المتلقي أكثر من أي اختصاصي آخر؛ ولهذا يقول جورجياس: "أؤكد لك [يا سقراط] أنه إذا حضر خطيب وطبيب إلى أي مدينة، وفي أي مكان تريد، وتنافسا على إلقاء الكلمة في تجمع ما، أو في أي اجتماع بغرض تعيين أيهما يكون طبيبا، فلن يقدم الطبيب أي عرض على الإطلاق، ولكن سيتم تعيين الشخص الذي كانت لديه القدرة على الكلام، إذا كان يتمنى ذلك. وإذا كان يتنافس مع أي حرفي في أي حرفة كانت، فإن الخطيب أكثر من أي شخص آخر سوف يقنعهم بأنه هو الحرفي الحقيقي، لأنه لا يوجد أي شيء لا يستطيع الخطيب التحدث فيه بشكل أكثر إقناعا في أي تجمع أكثر من أي حرفي مهما كان"[23].

إن الخطابة السفسطائية كما صورها أفلاطون في محاورته 'جورجياس' هي قدرة على الكلام في أي شيء والجواب على كل الأسئلة، فهي قدرة مدهشة تسمح للمتمكنين منها بالتحكم في عقول الجماهير وحتى في أجسادهم، وتدفعهم إلى القيام بسلوك عادل وذي مغزى، شريطة أن يتحلى الخطيب بقيم النزاهة والعدالة. لذلك يقول جورجياس: "يحظى الخطيب بالقدرة على الكلام ضد كل شخص في كل موضوع، وذلك في التجمعات ليكون أكثر إقناعا، باختصار، بشأن أي شيء يحبه، لكنه يتحاشى سلب سمعة الأطباء أو الحرفيين، لأنه ليس في حاجة للقيام بذلك"[24]. غير أن سقراط لا يعترف بقدرة الخطيب على معرفة الحقيقة ولا يمكن له أن يتعرف على الواقع ما دام "يدعي الإجابة على أي سؤال قد يطرح عليه"[25].

إن الخطابة ليست سوى مداهنة وتظاهرا بمعرفة الحقيقة. باختصار، ليست ذات أهمية، لأن "السفسطائيين والخطباء يميلون إلى الاختلاط لتدريب الأشخاص العاملين في نفس المجال والاهتمام بنفس الأشياء. إنهم لا يعرفون ماذا يفعلون بأنفسهم، والآخرين لا يعرفون ماذا يفعلون بهم"[26]. إن الخطابة مثلها مثل الجسد الذي ينساق وراء غرائزه ولا يخضع لحكمة الروح، و"إذا كانت الروح لا تحكم الجسد، ولكن الجسد هو الذي ينظم نفسه"[27]، فإن الجسد سيستمتع بفن طهي الحلويات عوض البحث عن الدواء للعلاج، كما يتزين بمستحضرات التجميل عوض القيام بتمارين رياضية، وذلك لخداع الآخرين بجمال مصطنع عوض الجمال الحقيقي[28]. وهذا ما جعل أفلاطون يدين الخطابة السفسطائية قائلا على لسان أستاذه: "إنني أصرح بأن الخطباء والطغاة لا يتمتعون في حواضرهم إلا بسلطة ضعيفة، لأنهم لا يفعلون الكثير مما يريدون، على الرغم من أنهم بالتأكيد يفعلون ما يعتقدون أنه الأنسب"[29].

يتميز الموقف الأفلاطوني من الخطابة بالازدواجية، حيث ينظر إليها من حيث وظيفتها نظرة ثنائية:

الأولى نظرة سلبية قائمة على الرفض الصارم للخطابة باعتبارها سفسطة موجهة إلى الحشود، وتنطوي على الرأي والظن لا المعرفة والحقيقة المطلقة، وهي حرفة يزاولها خطباء مقابل جني أموال باهظة. وبذلك فهي تشكل خطورة على الحياة العامة للمواطن داخل المدينة، وتعلي من شأن المتغير والعابر على حساب الثابت والمستقر؛ بمعنى أن الخطابة ليست في حاجة إلى معرفة ماهية الأشياء التي تتحدث عنها، بل تحاول فقط أن تقنع المستمع بوجهة نظر ما حول أي موضوع كان، وما دامت تخاطب العامة من الناس فهي تروم التأثير فيهم ودغدغة مشاعرهم.

وأما النظرة الثانية إيجابية خصوصا عندما تكون الخطابة حوارا وجدالا بين خبراء يناقشون موضوع تخصصهم، يمتلكون نفس أدوات التفكير العقلاني، ويحتكمون إلى البراهين والأدلة القطعية. وهذا النوع من الخطابة الفلسفية أو الجدلية هي التي تبني المعرفة الحقة وتقارع الحجة بالحجة، دون تضليل أو خداع، وتسمو بالنقاش والحوار من المحسوس والظني إلى المجرد اليقيني. فالخطابة الجدلية حسب أفلاطون هو المنهج الذي يستطيع بفضله الفلاسفة تجاوز سلطة العادة والمألوف ونسخ الأشياء قصد تعقل المثل الخالدة والحقائق السرمدية. إن الجدل – عند أفلاطون – هو فن أو أسلوب في طرح الأسئلة وتقديم الجواب عليها. وهو علم القوانين الأكثر عمومية التي تحكم الطبيعة والمجتمع والفكر، حيث تسلكه الذات صعودا ونزولا: إما صعودا بواسطة الاستقراء، حيث تستطيع النفس من خلاله الانتقال من المحسوسات إلى الشكوك فالاستدلالات الرياضية وصولا إلى الكيانات المجردة، بمعنى الانتقال من الكثرة إلى الوحدة، ومن المحسوس إلى المعقول، ومن المادي إلى الفكري. وإما نزولا عندما يتم تقسيم الكليات إلى الجزئيات، أي النزول من المثل (الأفكار والصور) إلى النسخ (الأشياء) وذلك بتحليلها وترتيبها في أجناس وأنواع[30].

إن الخطابة السفسطائية أساليب وتقنيات بلاغية تؤثر في المستمع وتعمل على الدفاع عن الأطروحة ونقيضها بمبرر أنه لا وجود لواقع موضوعي مستقل عن الذوات التي تتفاعل معه وتدركه بالحواس، بمعنى أنه لا جود لحقيقة مطلقة، وحتى إن وجدت فإننا لا نستطيع بلوغها وحتى إن افترضنا أن الذوات تستطيع أن تحوز الحقيقة فإنها تعجز عن التعبير عنها أو قولها للآخرين، لأن كل ذات لا تملك إلا وجهة نظر خاصة، ولا ترى الأشياء إلا من منظورها الخاص. وعليه فإن كل شيء نسبي وكل الخطابات قابلة للتخطيء والتصديق والشك، والمصلحة والمنفعة هي التي تجعلنا نسوغ أو نبرر معقولية خطاب دون آخر. أما الخطابة الفلسفية/الجدلية على النقيض من ذلك تنطلق من مسلمة أساسية وهي أن هناك واقع موضوعي وهناك حقائق مطلقة لا تعطى من خلال الحواس أو وجهات النظر الخاصة، بل تبنى ويستدل على وجودها من خلال الجدل والحوار، ولذلك تعتبر اللغة وسيلة مثلى للولوج إلى المعرفة الموضوعية المطلقة، التي توجد في أعماق النفس البشرية، والأداة المناسبة لتذكر واسترجاع ما كان معروفا وأصبح منسيا نظرا لانشغال النفس بمطالب الجسد الغريزية أو بالانطباعات الحسية.

لقد بين أفلاطون في 'أمثولة الكهف'[31] أن الروح شأنها شأن الناس الذين قيدوا في كهف منذ نعومة أظفارهم لا يرون إلا الظلال التي تنعكس على جدار الكهف، حيث يعتقدون أنها الحقيقة، بينما الأشياء الحقيقية توجد خارج السجن ساطعة وواضحة[32]. فالروح (الخالدة) وحدها هي التي تعرف الحقيقة المطلقة، أما الجسد (الفاني) بحواسه وخبراته فهو لا يستطيع بلوغ الحقيقة، بل هو مصدر الأوهام والظلال والنسخ عن الأشياء. إن الفيلسوف مثله مثل السجين الذي يستطيع فك قيوده ومحاولة التخلص من الأوهام ونسخ الأشياء المنعكسة على جدار الكهف، لأنه لا يقنع بما هو معتاد، بل يسعى إلى تجاوز المألوف وربط الانطباعات الحسية بمصدرها (الحواس)[33]. وعليه فإن بلوغ الحقيقة يتطلب انقلابا جذريا عن العادات المألوفة، ومجاهدة النفس للتخلص من سلطة الآراء الجاهزة ورفض القيود التي نصبها الجسد، لترى الأشياء في وضوح تحت ضوء الشمس الساطعة بكل حرية بدل ظلام الكهف (الجسد). أما السفسطائي فهو مثل السجين الذي يقنع برؤية ظلال الأشياء ونسخها في عتمة الكهف، ويكتفي بالتعبير اللغوي عن تغيراتها وتحولاتها وتمظهراتها على مسرح الإدراك الحسي دون أن يستطيع النفاذ إلى ماهيتها الحقيقية ووحدتها وثباتها.

خلاصات.

لا أحد ينكر الدور البارز الذي لعبه السفسطائيون في الترويج للثقافة الديموقراطية الأثينية، معتبرين أن من يحسن الكلام ويقنع المواطنين في الأغورا يمكن أن يدبر الشأن العام. لقد ساهموا في تطوير نظريات فلسفية – بناء على "رؤية خاصة للعالم"[34] – حول قضايا عدة تتمحور كلها حول الإنسان والمجتمع والدولة بنظرة نسبية تأخذ بعين الاعتبار الوضع البشري؛ وبينوا أن الحقيقة والتنظيم الاجتماعي والسياسي هي إبداعات بشرية قابلة للتغيير والتطوير، لذلك اضطلعوا بمهمة تعليم الناس فنون التعبير، وحسن القول قصد النجاح في تدبير المصالح المشتركة، وتسيير الشأن العام بروح براغماتية لا تصمد فيها إلا الخطابات التي تقنع الناس وتؤثر فيهم. أما ادعاء وجود حقيقة مستقلة خارج خطابات الناس الذين يعيشون في زمان ومكان تتعالى على وجودهم المادي المتغير والدينامي فهو ادعاء يصعب الدفاع عنه. ومنه فإن الحقيقة ليست ملكا لأحد بقدر ما هي علاقة بين المتكلمين تبنى عبر عملية التواصل والنقاش، وأن من يملك الحجج الأفضل هو الذي يحسم النقاش ويدفع الخصوم إلى الإذعان لأطروحاته.

رغم النقد والدحض الذي تعرضت له الخطابة السفسطائية، فإن ذلك لا يعني أنها كلها مرفوضة، بل إن الهدف من النقد الموجه لها هو تخليصها من المغالطات والتلاعب بالعواطف والتدليس على المستمعين فقط، والدليل على ذلك أن أرسطو فصل بشكل واضح في أنواع الممارسات الخطابية (القضائية، الاحتفالية، التشاورية)، وحصر المجالات التي يتم تداولها فيها، كما بين الفرق بينها وبين البرهان القائم على المنطق والاستدلال العقلي[35]. لكن بعد أرسطو تم محاصرة الجانب الخطابي/الجدلي في الأساليب البلاغية التقنية للنصوص النثرية والشعرية. في مقابل ذلك تمكن المنطق الصوري من السيطرة على العقلانية العلمية واكتساح جميع مجالات وأبعاد المعرفة الإنسانية لمدة تزيد عن العشرين قرنا. بيد أن هذا الوضع سيتغير مع منتصف القرن العشرين، حيث سيتم إحياء التراث الخطابي وبعثه من جديد وذلك بإعادة الاعتبار للحجاج، وإعطائه المكانة التي يستحقها في منظومة الخطابات الطبيعية، وسينحصر دور المنطق الصوري في مجالات العلوم التجريبية والرياضية، وبذلك نصبح أمام نمطين من الاستدلال، أحدهما منطقي برهاني والآخر حجاجي تداولي.

رفض أفلاطون الخطابة السفسطائية لأنها تؤثر على بعدين أساسيين في حياة البشر: بعد إبستيمولوجي/معرفي، وبعد قيمي أخلاقي/عملي.

أما المستوى الإبستيمولوجي فيكمن في المقاربة النسبية التي تشكل الخلفية النظرية للخطابة السفسطائية، التي لا تعترف بوجود واقع مستقل عن تصورات الذوات ولغاتها وثقافتها، ومنه فإن المعرفة والحقيقة هما مسألتان ذاتيتان متغيرتان، فالحقيقة هي ما يقوله الخطاب الذي يعكس خصوصية لغة المتكلم وثقافته ومصالحه، والواقع هو ما تعتبره الذات واقعا، بناء على ما تسمح به تصوراته واعتقاداته، ومنه فإن ما يعد حقيقة في خطاب (ثقافة أو لغة) قد لا يعد كذلك في خطاب آخر، وما دام الأمر كذلك فإن الذوات المتكلمة تستطيع التعبير عن اعتقاداتها ووجهات نظرها، كما تستطيع إقناع الآخرين بها، وكذا العمل على توجيه سلوكهم والتأثير في اختياراتهم من خلال وسيلة مفضلة وعملية، وهي اللغة. وهذا الأمر يتناقض كلية مع الخلفية الفلسفية التي ينطلق منها أفلاطون، فهو يبني نسقه الفلسفي على اعتبارات عقلية أبرزها: (1) الحقيقة واحدة ومطلقة وخالدة كانت تعرفها الروح ونستها بسبب انشغالها بمطالب الجسد، ومنه يجب تذكر هذه الحقيقة من خلال عملية التعليم المنظم والمتدرج الذي يمارسه فلاسفة مدربين وليس السفسطائيين الجشعين؛ (2) الوصول إلى الحقيقة يتطلب انقلابا جذريا ضد العادات ومساءلة كل الشكوك والظنون الناتجة عن شهادة الحواس والآراء الخاصة، من خلال اعتماد منهج جدلي فلسفي ينطلق من الحواس التي لا ترى إلا النسخ إلى التجريد العقلي الذي يتعقل

المثل والكيانات الصورية؛ (3) الخطابة الجدلية هي البديل العملي للخطابة السفسطائية، لأنها خطابة حوارية يتكافأ أطرافها معرفيا، حيث يقارعون الحجة بالحجة، ويحتكمون إلى سلطة البرهان والاستلال المنطقي، ولا شيء غير ذلك.

أما على المستوى القيمي العملي، فإن الخطابة السفسطائية، رغم بعض مزاياها، فهي تنطوي على سلبيات ومخاطر على النسيج الاجتماعي والتنظيم السياسي، وهذا ما جعل من أفلاطون عدوا لذوذا لها، حيث قام بالتنقيص من محترفيها، لأنهم يغالطون الناس ويسيئون إلى العلم والمعرفة، ويعلمون أي شيء لأي كان، غير أن المبرر الحقيقي الذي جعل أفلاطون يستهجن الخطابة السفسطائية هي كونها تنسجم مع الروح الديمقراطية التي نشأت في المدن اليونانية، حيث أصبحت السياسة فعل عمومي يشارك فيه الجميع، سواء كانوا ذوي ثقافة عالمة ومعرفة دقيقة، أو كانوا مجرد حرفيين محدودي المعرفة. فالذي يحسن الخطاب يستطيع أن يدبر شؤون المدينة، حتى وإن كانت معرفته محدودة. لأن السياسة – حسب أفلاطون – هي تفكير نظري قبل أن تكون ممارسة وفعلا، والتنظير يتطلب تكوينا وتدريبا فلسفيين يتجاوز مظاهر الأشياء ولحظية الأفعال وسلطة العادة. فالسياسة هي فن تدبير المدينة قصد تربية المواطنين على الأفعال الفاضلة التي تضمن إنسانية الإنسان وتميزه عن باقي الموجودات، ومنه فإن الأجدر لحكم المدينة هم الفلاسفة، لأنهم وحدهم القادرين على تحديد مكامن الخير والجمال وضمان العدالة، وبذلك تتحقق الغاية القصوى لأفعال الإنسانية، ألا وهي السعادة في بعديها الفردي والجماعي. لكن هيهات!

الهوامش:

1 – النطق والتمفصل بين اللفظ (الدال) وما يحمله من دلالة (المدلول) هو ما يميز لغة الإنسان عن لغة الإشارة الحيوانية، فإذا كان الإنسان يشترك مع الحيوانات في الأجهزة العضوية بما فيها 'الجهاز المؤثر' و'الجهاز المستقبل' فإنه يتميز عنها بامتلاكه 'جهازا رامزا' يسمو به من عالم الطبيعة والضرورة البيولوجية إلى عالم الرمز والمعنى، ويتمثل هذا الجهاز في الشبكة الرمزية كاللغة، والأسطورة، والدين، وغيرها. ومنه — حسب تعبير إرنست كاسيرر – يصبح الإنسان بالتعريف "كائنا يحد بالرموز بدل حده بالعقل". ينظر: إرنست كاسيرر، مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية، أو مقال في الإنسان، ترجمة إحسان عباس، بيروت: دار الأندلس، 1961، ص:69.

[2]– جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع، الفلسفة في العالم الواقعي، ترجمة سعيد غانمي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 2006، ص 40.

[3]– Plato, Theaetetus, in Complete works of Plato, edited, with Introduction and Notes, by John M. Cooper, Associate Editor, D. S. Hutchinson, Indianapolis/Cambridge: Hackett Publishing Company, 1997, 152a.

[4]– Olivier Reboul, Introduction à la rhétorique, Paris: Puf, 1ére Edition, 1991, p. 20.

[5]– سيرل، العقل واللغة والمجتمع، مرجع سابق، ص :39.

[6]– نفسه، ص:40.

[7]– Reboul, Introduction à la rhétorique, op. cit., p. 18.

8 – عاش سقراط في القرن الخامس قبل الميلاد، مثله مثل معظم السفسطائيين الذين عاصرهم، لا نعرف عنه إلا ما نقل عنه من أفكار وتصورات وأطروحات. فإن كانت معرفتنا ببعض السفسطائيين ممكنة رغم ما يعتريها من نقص بسبب قلة الشذرات المتبقية والمنسوبة إليهم، فإن سقراط لا يمكن معرفته إلا من خلال حضوره في المتن الفلسفي لتلامذته، خصوصا أفلاطون، إذ يعد نموذج الفيلسوف الذي مارس الفلسفة والمحاججة شفويا، حيث لم يثبت أنه كتب شيئا. وعليه لمعرفة بعض أطروحاته الفلسفية يلزم أن "نشاهده يتجول في أعمال [محاورات] أفلاطون، أو في مذكرات زينوفون، لكن ماذا نشاهد؟ نشاهد سقراط يتجول في جميع أنحاء أثينا، يستنطق جميع أولئك الذين قد يبدو أنهم يمتلكون المعرفة أو الكفاءة. يسأل مرة لاشيس الجنرال، عن الشجاعة؛ ومرة أخرى كل من ليسيس وصديقه منيكسينوس عن الصداقة. ومرات عدة السفسطائيين المثقفين، الذين يزعمون أنهم يعرفون كل شيء، وجميع أنواع الأشياء عن: الجمال، وإمكانية تدريس الفضيلة، وما إذا كان من الأفضل أن تعاني من الظلم أو أن ترتكبه، إلخ. غير أنه في كل مرة، تتم المحادثة بطريقة مماثلة: سقراط، غير راض عن الإجابات المقدمة له، يزعج محاوَريه بأسئلة

جديدة. مما ينتهي المطاف بهم في وقت وجيز عاجزين عن الكلام أمام طوفان النقد الذي يدفعهم إلى الاستجابة مجددا له: وبالتالي يتضح زيف المعرفة التي بدا أنهم يملكونها غرورا". ينظر:

Christophe Rogue. L'objet de la philosophie aujourd'hui, ATALA N° 8, 2005, PP 27 – 36, P. 30

9– حافظ إسماعيلي علوي وآخرون، الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، الجزء الأول: حدود وتعريفات، أربد (الأردن): عالم الكتب الحديث، 2010، التقديم، ص 8.

10 – يعرف المنهج السقراطي في البحث عن المعارف والحقائق بمنهج التوليد (LA MÉIOTIQUE)، بفضل هذا المنهج الذي يجمع بين التهكم والسخرية – من جهة – والتواضع والسؤال الجوهري – من جهة أخرى – حول المفاهيم والمعارف، استطاع سقراط تنبيه محاوريه إلى أن ما يملكونه من أراء وانطباعات حول المفاهيم لا تعدو أن تكون مجموعة من الظنون والشكوك التي لا تصمد أمام المزيد من الأسئلة المتشعبة والكثيرة، حيث نلاحظ أن سقراط غالبا ما يحضر في المحاورات الأفلاطونية كشخص لا يعرف أشياء كثيرة مقارنة بمحاوريه، لذلك هو يختبئ وراء الأسئلة ويتفادى تقديم الأجوبة الجاهزة. ومن هنا يذهب طه عبد الرحمان إلى أن سقراط هو نموذج للفيلسوف الذي توسل السؤال كآلية فكرية يهدف من ورائها إلى فحص أفكار المحاوَرين (في الغالب السفسطائيين) وبيان تهافت دعواهم وتناقض تصوراتهم. ينظر: طه عبد الرحمان، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 2002، ص13 – 14.

11 – اعرف نفسك بنفسك لتعرف الكون والآلهة" حكمة من الحكم اليونانية التي نُقِشت على باب هيكل أبولون في معبد دلفي، ولقد وظفت من طرف المفكرين الدينين للدعوة للتواضع وفعل الخير ما دام الإنسان فان عكس الآلهة الخالدين، ويعتبر سقراط من الفلاسفة الذين أولوا هذه الفكرة تأويلا فلسفيا، حيث أصبحت عنوانا لمذهبه الفلسفي الذي يمنح الصدارة لمعرفة الإنسان بخصوصياته التي ينفرد بها عن باقي الموجودات: من أخلاق، وقيم، ووعي، ومعرفة، ولغة وغيرها. لذلك اعتبر سقراط الفيلسوف الذي أنزل الفلسفة رفقة السفسطائيين من السماء، إذ تم التخلي عن البحث في المبدأ والأصل الذي يتحكم في الكون والذي تم تدشين التفلسف حوله مع الفلاسفة الطبيعيين أمثال طاليس وتلامذته، إلى الأرض حيث مأوى الإنسان بتناقضاته: جسد/روح، فرد/جماعة، لوغوس/كلام، حقيقة/رأي، فناء/خلود...وهلم جرا. فأن 'تعرف نفسك' حسب سقراط يعني اكتشاف حجم الجهل الذي يدفع المرء بالغرور وادعاء المعرفة عوض التواضع والانطلاق في البحث الشاق والمضني عن الحقائق الخالدة التي تختفي وراء التمظهرات والانطباعات. لذلك يعتبر سقراط أن ما أخبرت به عرافة معبد دلفي صديقه شيفرون بكونه: "لا أحد يتصف بالحكمة أكثر منه"، (ينظر: PLATO, APOLOGY, IN COMPLETE WORKS OF PLATO, OP. CIT., 21A) هو قول صادق إذا ما اعتبرنا أن من يعترف بأنه جاهل، ويعمل على تجاوز جهله واكتشاف ما يوجد من حقائق بنفسه، أفضل وأحكم وأعرف ممن يدعي المعرفة وهو يجهل أنه لا يعرف. لأن جهل سقراط جهل بسيط ويمكن تجاوزه بتوليد الأفكار الكامنة في النفس، بينما جهل خصومه جهل مركب ومزدوج فهم يجهلون أنهم جهال لا يعرفون. ومادام الجهل متفشيا في مواطني مدينته أثينا، فإن سقراط كرس حياته – حسب زعمه – لمهمة مقدسة (إلهية) وهي معالجة الناس من جهلهم وإقناعهم بأن أهم شيء بالنسبة للإنسان هو صحة الروح. وأصر على أن الثروة لا تجلب التفوق البشري أو الفضيلة، ولكن الفضيلة تجلب الثروة وكل الخير للبشر. ومن ثمة ف'المعرفة فضيلة والجهل نسيان' كما يبين سقراط في محاورة مينون. لذلك يقول: "تأكد من أن هذا هو ما أمرني به الله، وأعتقد أنه لا يوجد نعمة أكبر للمدينة من خدمتي لله. لأني لا أفعل شيئا سوى إقناع الصغار والكبار على حد سواء بعدم الاهتمام بالجسم أو الثروة أكثر من اهتمامهم بأرواحهم، كما أؤكد لك: بأن الثروة لا تجلب التميز، لكن التميز يجعل الثروة وكل شيء آخر جيدا للرجال، فرادى وجماعات". ينظر:

Plato, Apology, in Complete Works of Plato, op. cit., 30b.

12- Plato, Theaetetus, in Complete works of Plato, op. cit., 151a-b.

13– طه عبد الرحمان، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، مرجع سابق، ص: 13-14.

14 – عاش أفلاطون ما بين 429 و347 قبل الميلاد، وهو من أشهر فلاسفة اليونان وأكثرهم تأثيرا إلى جانب أرسطو في الفلسفة عامة، والغربية خاصة، يغلب على معظم كتاباته طابع المحاورة بين شخصيات عدة: سقراط حاضر في معظمها إلى جانب شخصيات أخرى مثل: بروتاجوراس، جورجياس، مينون، بارميندس، كراتيلوس، وغيرها كثير. بعض هذه الشخصيات سميت بها محاوراته وبعضها حاضر في ثنايا المحاورات تدافع عن أطروحاتها وتنشط الجدال والنقاش الفلسفي. هناك استثناء واحد في فلسفة أفلاطون يغيب فيه الحوار هو خطاب 'الدفاع' الذي يزعم

أن سقراط ألقاه للدفاع عن براءته في المحكمة، نقله لتخليد الحجج التي فند بها سقراط التهم التي وجهت إليه (وخصوصا تهمة عدم احترام آلهة الأولمبيا – زوس، أبولون وآخرون – المعترف بها في المهرجانات وغيرها من الأنشطة الرسمية في مدينة أثينا). نهج أفلاطون أسلوب المحاورة ليورط القارئ ويدفعه إلى "أن يفكر فيما يقوله كل متكلم للآخرين (وأيضا، في بعض الأحيان، ما لا يقوله)، ويسجل ما يلزم [من حجج] للدفاع أكثر عما يقدم بالفعل، ويحذر من أسلوب المؤلف في تقديم الشخصيات، وتقطيع الخطابات، للإشارة إلى نقاط يعتقد المؤلف أنها تحتاج إلى مزيد من التفكير. علاوة على ذلك، يجب أن تفكر بنفسك، استنادا إلى النص، لمعرفة ما إذا كانت هناك بالفعل أسباب كافية لدعم ما قد يصرح به النص في شموليته. وكل ذلك، لكي يجسد أفلاطون حكمة أستاذه سقراط: يجب التوصل إلى الحقيقة من قبل كل واحد منا من أجل نفسه، حيث يتحاور الكل مع الكل. ولهذا يدعو أفلاطون الآخرين للقيام بعملهم الفكري، وبالتعاون معه، في التفكير في القضايا التي يعالجها". تنظر مقدمة المترجم لأعمال الكاملة لأفلاطون:

Plato, Complete Works of Plato, op. cit., p. xx.

تعد فلسفة أفلاطون من الفلسفات النسقية التي تصدر عن نظرة بانورامية للمباحث الفلسفية الثلاث: الوجود، المعرفة والقيم، إذ بنى أفلاطون نسقه الفلسفي من عناصر متفرقة ومشتتة استمدها من الفلسفات السابقة عليه، حيث:

تأثر بأسلوب 'الكتابة الدرامية' كما هو الأمر مع 'هوميروس'؛

وظف الخاصية الحجاجية للغة ل'تنشيط الحوارات' قصد إضفاء الحيوية عليها والجدية اللازمة لاستمرارها؛

استلهم الروح السقراطية في البحث عن 'الحقيقة'؛

توسل 'المنهج الجدلي' في الصعود من المحسوس/المتغير إلى المجرد/الثابت؛

دافع عن الطبيعة الضرورية لأسماء اللغة تأثرا ب'كراتيلوس'؛

نافح عن 'نظرية المثل' مع 'بارميندس'؛ و'خلود النفس' مع 'الفيثاغوريين'، ومنهج التذكر في بناء المعارف مع 'مينون'، و'موضوعية المعرفة العلمية' مع 'تياتيتوس'، وغيرها كثير.

وكل هذه العناصر تتفاعل وتتكامل في معمار منسجم يهدف إلى تربية الشباب (المواطنين) في الأكاديمية حيث يتدرجون في مدارج العلم والحكمة والتدريب البدني ليتمثلوا — ويمارسوا – معنى أن يكونوا مواطنين فاضلين يحكمهم القانون داخل فضاء عام (المدينة الفاضلة) يسوده الخير، والعدل، والحق والجمال، إذ العقل (الفيليسوف) هو المشرع والحاكم، والجسد (الشعب) هو موضوع السلطة، والغضب (الحراس) وسيلته.

15– حافظ إسماعيلي علوي وآخرون، الحجاج مفهومه ومجالاته، مرجع سابق، ص:8.

16– للمزيد عن هذا التقابل بين الرأي والحقيقة. ينظر:

Plato, Republic, in Complete works of Plato, op. cit., Book VII, 515b-c-d.

17- Plato, Gorgias, in Complete works of Plato, op. cit., 455a.

18- Ibid, 324c-d.

19" – لا توجد في اللغة اليونانية كلمة متطابقة مع كلمة 'عمل' إذ تنطبق كلمة مثل 'ألم' [ΠΌΝΟΣ] على جميع الأنشطة التي تتطلب مجهودا شاقا، وليس فقط على المهام التي تنتج قيما مفيدة اجتماعيا". كما يذهب إلى ذلك فرنان. (ينظر: Jean- Pierre Vernant, Mythe et pensée chez les grecs, op. cit., p.274). أما اللفظ اللاتيني Tripalium بالفرنسية Travail يدل على القيد ذو ثلاثة أوتاد، حيث كان يحبس العبيد ويعاقبون. ولهذا السبب اعتبر العمل اليدوي عقابا ومشقة في الثقافة اليونانية، لذلك كان العبيد هم المكلفون بالقيام بالأنشطة اليدوية المنتجة، بينما المواطنون الأحرار يمارسون الأنشطة الفكرية حيث يفكرون ويخططون ويشاركون في اتخاذ القرارات السياسية، هذا الوضع الطبقي هو نتاج للظهور ما عرف بالدولة–المدينة حيث ظهر التقسيم الثنائي فضاء خاص يرتبط بالأنشطة الإنتاجية (تجارة، فلاحة، حرف يدوية...) لأسر والأفراد، وفضاء عام يشارك فيه الأفراد الذين يحضون بامتياز المواطنة. وهكذا كان الأسياد (الأحرار) يهتمون بالتفكير النظري والتدبير السياسي لأن "كل الشؤون العامة يجب أن تكون، بالنسبة إلى كل الذين يشكلون المجموعة السياسية، موضوع نقاش عام في واضحة النهار، وفي الساحة العمومية، وذلك اعتمادا على خطابات مدعمة بحجج. إذ تفرض المدينة إبطال التقديس وعقلنة الحياة الاجتماعية... وأصبح الناس هم الذين يتولون بعد المناقشة مصيرهم 'المشترك' (عندما أقول الناس، أعني طبعا فقط المواطنين لأن هذا النظام السياسي، كما هو معروف، يفترض أن يكرس الآخرون حياتهم للعمل المنتج). والإدارة الجيدة لشؤون المدينة، تتطلب الإدلاء بالحجج ومناقشتها من طرف كل

المواطنين. ووسيلة النقاش هي اللوغوس والذي ينطوي على معنيين: فهو من جهة يدل على الكلام، أي الخطاب الذي يلقيه الخطباء في التجمع، ومن جهة أخرى العقل، وهو ملكة المحاجة التي تسمو بالمواطن من مجرد حيوان إلى 'حيوان سياسي'، أي كائن عاقل". ينظر:

Jean- Pierre Vernant, Mythe et pensée chez les grecs, Etudes de psychologie historique, Paris : éditions la découverte, 1988, P. 208.

20- Jean- Pierre Vernant, Mythe et pensée chez les grecs, op. cit., p. 270.

21- Plato, Gorgias, in Complete works of Plato, op. cit., 455b.

22- Ibid. 456b.

23- Ibid. 456b-c.

24- Ibid. 457a-b.

25- Ibid. 447d.

26- Ibid. 465c.

27- Ibid. 465d.

28- Ibid. 465b-c.

29- Ibid. 466d-e.

30 – - يقول أفلاطون على لسان الزائر في محاورة 'السفسطائي' مبينا الفرق بين الفيلسوف الحق الذي يعتمد الجدل في معرفة الحقيقة والسفسطائي الذي يدعي المعرفة فقط: "إذا كان بإمكان أي شخص القيام بذلك [الجدل]، فسيكون قادرا على التمييز بشكل كاف الكيان الصوري 'المثال'[Form] الذي ينتشر في أشياء أخرى كثيرة، كل واحد منها يتميز عن الآخر. بالإضافة إلى ذلك، يمكنه التمييز بين الكيانات الصورية المختلفة بعضها عن بعض والتي تنتمي إلى كيان صوري خارجي، أو كيان صوري واحد متصل كوحدة في عدة مجموعات أو كيانات صورية منفصلة تماما بعضها عن البعض. هذا ما يجب أن نعرفه عن كيفية التمييز بين الأشياء المترابطة أو غير المترابطة". (Plato, Sophist, in Complete Works of Plato, op. cit., 253d-e). أما السفسطائي فهو يفتقد إلى هذا المنهج بل "يغوص في غموض تمظهرات الأشياء، وهو معتاد على ذلك، ومن الصعب عليه رؤية الأشياء في وضوحها لأن المكان مظلم للغاية". (Ibid, 254A).

31- Plato, Republic, in Complete works of Plato, op. cit., Book VII, 514a-b.

32- Ibid., 515c-d.

33- Ibid., 515d-e.

34- Reboul, Introduction à la rhétorique, op. cit., p.21.

35 – - يعتبر أرسطو أن الخطابة تمارس عندما لا يمكن حسم الجدال باستدلال عقلي أو برهان قطعي، فهي تنتعش في المجالات التي يتفاعل فيها الناس مع بعضهم البعض فيؤثرون ويتأثرون، ويقنعون ويقتنعون، ويقبلون ويرفضون. باختصار تمارس الخطابة في مجال القيم، ولا شك أن أبرز المجالات التي تتداول فيها القيم الأخلاقية هي، القضاء، السياسة والاحتفال: فالجميل والقبيح يلازمان الخطابة الاحتفالية في الأولمبيا؛ والخير والشر يلازمان الخطابة التشاورية (السياسية) في الساحة العمومية؛ والعدل والظلم يلازمان الخطابة القضائية في المحاكم. إن موضوع الخطابة – إذن – هو مجال القيم الرحب حيث يصعب الحسم في الاختيارات، فهي مجال كل ما هو غامض ومتغير، قابل للخطأ والصواب، إنها "تهتم بالأمور التي نتحاور بشأنها ولا نتوفر على صناعات خاصة بها، وتتوجه إلى مستمعين عاجزين عن الفهم التركيبي في حضرة عناصر كثيرة، وعن الاستدلال المتصل خلال لحظات مسترسلة". ينظر:

Aristote, Rhétorique, Traduit Par Charles-Émile Ruelle, Patricia Vanhemelryck, Édité Par Benoît Timmermans, 1991, P. 95.